

تخليدا لروح القائد الثوري الفذ الشهيد المهدي بنبركة

في التاسع والعشرين من هذا الشهر، تحل بنا ذكرى أليمة، ذكرى اختطاف واغتيال الشهيد المهدي بنبركة سنة ١٩٦٥. نعم، واحد وعشرون سنة مرت على الاختطاف الاجرامي الذي تعرض له الشهيد بباريس في واضحة النهار، وفي اطار تواطؤ مكشوف بين أجهزة المخابرات الفرنسية والمغربية. واحد وعشرون سنة مرت والملف الجنائي لا يزال مفتوحا لتبيان الحقيقة كل الحقيقة عن هذه الجريمة الشنعاء. فمن المعلوم أن المحاكمة التي شهدتها باريس آنذاك مرت في ظروف وملابسات أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها كانت محفوفة بالغموض. ومن المعلوم أيضا أن الطرف المدني قاطع الجلسات الاخيرة من المحاكمة ورفض تزكية العديد من التجاوزات والممارسات التي صاحبها، تجاوزات تستهدف حماية وصيانة "مصالح الدول"، لكنها كانت بكل تأكيد على حساب الحقيقة ومقتضيات العدالة. واليوم، وبعد مرور واحد وعشرين سنة لا زال العديد من الاسئلة مطروحا دون جواب. ورغم مرور كل هذه المدة الزمنية، فان عدة وثائق رسمية تهم سير العدالة في هذه القضية وموجودة في حوزة الدولة الفرنسية والولايات المتحدة، لازالت محاطة بالسرية والكتمان رغم عدة محاولات بذلت لدى سلطات البلدين المذكورين.

حياة نضالية حافلة بالكفاحات والعطاءات الفكرية

لقد جاء هذا الاختطاف الاجرامي ضد الشهيد المهدي وهو في أوج نضجه السياسي وعطائه الثوري فكرا وممارسة لا على صعيد المغرب فحسب بل على مستوى القارات الثلاث: افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، بعد مسيرة نضالية غنية وحافلة.

فقد باشر المهدي نشاطه النضالي وعمره لا يتجاوز الـ ١٥ سنة، حيث التحق بصفوف الحركة الوطنية وناضل في اطارها ضد الوجود الاستعماري المباشر. وهكذا كان المهدي أصغر الموقعين على وثيقة ١١ يناير ٤٤ التاريخية التي تجسد المطلب الوطني باستقلال المغرب. وعلى اثر الاحداث التي واكبت صدور هذه العريضة، اعتقل الشهيد المهدي ودخل السجن لأول مرة في فبراير من سنة ١٩٤٤. كما استنفيه السلطات الاستعمارية الى جنوب المغرب سنة ١٩٥١. ان نشاط المهدي ونضاله ابان المواجهة المباشرة مع المستعمر، لم يقتصر على الواجهة السياسية، بل كان نشيطا أيضا على الواجهة الثقافية والاجتماعية.

وغداة الاستقلال ، عمل المهدي على جعل هذا الحدث ذو مضمون حقيقي لفائدة الجماهير ومن أجل تحريرها فعليا . وقد برز دوره في هذا الاتجاه على مستوى المجلس الاستشاري الذي كان يترأسه الشهيد ، حيث اضطرت الطبقة الحاكمة لحل هذا المجلس وتعليق المسألة الدستورية الى أجل غير مسمى . كما تجلّى دور المهدي وحيويته النضالية في مشروع طريق الوحدة والمضمون المتقدم الذي أعطاه لهذه التجربة الرائدة . ومن أجل فرض الاختيار التقدمي ، عمل المهدي بشكل فعال داخل حزب الاستقلال ، وكعضو في لجنته التنفيذية لتطويره وتجدير اختياراته ومواقفه ، ضدا في مواقف القيادة التقليدية التي كانت تلهث وراء الامتيازات في ظل الاستقلال الشكلي ، ولتغليب الاختيار التقدمي الهادف لخدمة التحرر والتنمية والتقدم لصالح الجماهير . هذا الصراع الذي سيجد حسمًا نهائيا له في انتفاضة قواعد الحزب التي أسست الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في هذا الاتجاه في يناير من سنة ١٩٥٩ . ان ديناميكية المهدي ونشاطه الدؤوب وجرأة مواقفه وثورتها جعلته هدفا ثابتا للحملات القمعية التي شنتها الطبقة الحاكمة ضد الحزب ومسوءوليه ومناضليه . وهكذا وعلى اثر الحكم عليه غيابيا بالاعدام سنة ١٩٦٣ وبالاعدام للمرة الثانية سنة ١٩٦٤ ، اضطر الشهيد المهدي للبقاء خارج المغرب .

وطوال منفاه الاضطراري هذا عمل المهدي على تطوير نضاله على مستوى القارات الثلاث ، حيث ساهم بفعالية وبانتظام في التعريف بواقع ومشاكل البلدان المستعمرة والبلدان الحديثة العهد بالاستقلال ، ولعب دورا بارزا في فضح وتعرية التوجهات الجديدة للامبريالية وفي اعطاء مضمون دقيق للاستعمار الجديد ومراميه في القارة الافريقية على الخصوص وفي العالم الثالث عامة . وفي اطار تنمية التضامن بين حركات التحرير والقوى التقدمية على مستوى القارات الثلاث وتطوير التنسيق بينها ، بذل المهدي جهودا كبيرة وتحمل مسوءوليات متعددة ، منها على سبيل الذكر ، مشاركاته الفعلية في المؤتمرات الافريقية الاسيوية وترأسه للجنة التحضيرية لمؤتمر شعوب القارات الثلاث الذي كان مقررا عقده بهافانا في منتصف الستينات .

الاشتراكية العلمية عند الشهيد المهدي : فكر وممارسة

بموازاة هذا النشاط النضالي الكثيف ، خلف الشهيد ومن موقع التجربة والمعاناة ، عطاء فكريا غنيا ومتقدما ، فهو لم يفصل يوما بين الفكر والممارسة ، بل ان الربط الدائم بينهما ، شكل صفة متميزة للشهيد ولاعماله . وما يعطي لهذه المسألة أهميتها أنها كانت في مرحلة تاريخية ، كانت الغلبة فيها على مستوى المغرب للفكر السلفي وللأطروحات التوفيقية المشدوهة بالغرب . وهذا ما طبع ممارسة المهدي وتفكيره بالجرأة والوضوح والنقد . ولن يكون من قبيل المغالاة ، القول بأن الشهيد المهدي ، عبر أعماله الفكرية وتحليلاته وعبر ممارسته النضالية تمكن من تحقيق قطيعة فعلية مع الفكر السلفي المتحجر ومع الاوهام الليبرالية في آن واحد . . قطيعة مرتكزة على تبين واضح للنظرية الثورية : الاشتراكية العلمية ، لا كعملية تبني نظري مجرد ، بل كاختيار منطلق من الممارسة الحية والتجربة الملموسة ، محدثا بذلك نقلة نوعية في الخطاب السياسي الوطني الذي انتقل عند المهدي من مجال التفسير والتبرير كما كان سائدا الى مجال التحليل المادى والنقد العلمي . ان التأكيد على القفزة الحقيقية التي حققها المهدي بنبركة نظريا وسياسيا ، تأكيد ضروري لفضح اليمين الاتحادي وكل الانتهازيين القدامى والجدد الذين يحاولون ادعاء الوفاء لثرات المهدي وادعاء الاستمرار على الخط النضالي الذي رسمه شهداء حركة التحرير الشعبية ببلادنا من أمثال المهدي وعمر بنجلون ، هذا في الوقت الذي لا يكفون فيه عن نهج الممارسات وبث الأطروحات التي حاربها وصارعها هوؤلاء الشهداء أنفسهم . ان دموع التماسيح التي يذرفها هؤلاء الانتهازيون في مثل هذه الذكرى ، هي محاولة يائسة لاستغلال

اسم الشهيد المهدي ومكانته لدى الجماهير الشعبية، لنشر الاكاذيب والادعوى والاطروحات التحريفية. انه الفرق بين منهجين متناقضين، منهج المهدي الذي ينسجم مع جوهر الاشتراكية العلمية وروحها الحية. . كمنهج يرشد الممارسة ويغتنم بها، ومنهج هو لاء الانتهازيون، المنهج الذي يلبس قميص الاشتراكية ليمارس تحريفها وعكسها. . ففي الوقت الذي أصبحت فيه جل أفكار المهدي قناعات راسخة لدى مناضلي حزبه، استمر البعض ومن كان جزءا في هذا الحزب بالذات، استمر يبذل قصارى جهده لطمسها وتشويهها وافتراؤها من محتواها الثوري. وهذا ما يفرض على المناضلين الحذر دائما ازاء مثل هذه الممارسات والعمل باستمرار على اعادة الاعتبار لتحاليل المهدي وأفكاره لمحاربة الغموض والتحريف الذي يعيش الانتهازيون في ظله وينتفشون به .

ان بعض أفكار الشهيد الاقتصادية والاجتماعية، قد تبدو الان عادية وبديهية، لكنها كانت في وقتها تنبوءات ومخاطرات فكرية جريئة، وهي تدل على بعد نظر وعمق في التفكير. فعلى عكس السلفية التي تبحث في الماضي البعيد عن نموذج وهمي للمدينة الفاضلة، وعلى عكس البرجوازية اللقيطة التي تحلم بتقليد الغرب الرأسمالي، كان المهدي يلح على ضرورة انتهاج طريق جديد لا يسمح باعادة انتاج التخلف أو ببناء مجتمع رأسمالي تبعي مشوه، نظرا لاستحالة نجاح رأسمالية وطنية في عصر الهيمنة الامبريالية على خيارات الشعوب .

لقد استخلص الشهيد المهدي أن الافق الوحيد لاستمرار حركة التحرر الوطني في صعودها للوصول الى غاياتها، هو الافق الثوري، حيث يتطلب هذا الافق التسليح بالاشتراكية العلمية كمنهجية وفكر وهدف، لان القضاء على الامبريالية لا يتم الا بمواجهة حقيقية وحازمة تبدأ باقتلاع جذور امتدادات هذه الامبريالية نفسها داخل الوطن. ومن هنا حسم الشهيد مع ادعوى الاصلاحات الجزئية في ظل النظام الرأسمالي وأكد على أن المسألة الوحيدة التي تسمح للقوى التحررية بأن تكون في مستوى المهام المطروحة عليها، هي خوض نضال شامل ضد الامبريالية في الداخل والخارج في آن واحد .

ووعيا منه بمخاطر التحريف والتشويه، أعطى الشهيد مضمونا واضحا ومدققا للخيار الاشتراكي العلمي حيث حدده بقوله: "ان مضمون الاشتراكية العلمية عندنا، يقتضي:
 - حلا صحيحا لمشكلة الحكم، باقامة مؤسسات سياسية، تمكن الجماهير الشعبية من رقابة ديمقراطية على أجهزة الدولة، وعلى توزيع ثروتها ونتاجها القومي،
 - أسسا اقتصادية لا تترك أي مظهر من مظاهر سيطرة الاستعمار ولا لسيطرة حليفه الاقطاع والبرجوازية الكبرى الطفيلية،
 - تنظيما سياسيا واجتماعيا للسهر على تأطير الجماهير الشعبية وتربيتها، من أجل التعبئة الشاملة لسائر الموارد القومية الضرورية لتراكم وسائل الاستثمار".

لقد فقدت الحركة الثورية المغربية ومعها حركات التحرر وقوى التقدم في العالم، في الاخ المهدي بنبركة، قائدا مخلصا ومناضلا صادقا من أجل الجماهير الشعبية وقضيتها العادلة. . الا أن الشهيد المهدي بثراته الحي وبعطائه الفكري والنضالي والتنظيمي سيبقى شعلة حية مضيئة على درب التحرير والديمقراطية والاشتراكية، ونفسا دائما لتقوية عزائم المناضلين وتصليب ارادتهم للمزيد من العطاء والنضال من أجل مغرب حر ديمقراطي واشتراكي .

من مقولات الشهيد المهدي :

التحرير الحقيقي والديمقراطية الحقيقية

((اننا لا يمكن أن نتحرر تحررا حقيقيا عن طريق اصلاحات جزئية وفي اطار النظام الرأسمالي ، وان سياسة شاملة لمناهضة الامبريالية في الداخل والخارج هي وحدها الكفيلة بجعلنا في مستوى المهام الملقاة على عاتقنا .

((٠٠٠)) ان الديمقراطية لا يمكن أن تكون يافطة أو واجهة تعرض للسواح ، بل يجب أن تكون حقيقة تفتح في وجه الجميع حظوظ التقدم والمعرفة ، وهي تستلزم نظاما للمجتمع يقوم على تغيير جذري لاسس بنائه)) .

القضية الفلسطينية

((ان قضية فلسطين دخلت في اطار قضايا حركة التحرر العالمية في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية وهي لم تعد قضية عرب ويهود ، بل حركة عربية ثورية ضد قوى الاستعمار بلا تعصب عنصري . ولذلك ، وبسبب هذا المفهوم الانساني والعلمي لقضية فلسطين يمكننا أن نعتمد على القوى التقدمية والثورية في افريقيا لتدرك حقيقة هذه القضية ، ولتقف بجانب العرب في نضالهم العادل .

((٠٠٠)) وان من واجبنا أن نعرف الواقع الاسرائيلي في القارة الافريقية ، كما أنه من واجبنا أن نعلن رفضنا لهذا الواقع ككل واقع استعماري ، لاننا نرفضه كعرب ونرفضه كمناضلين ثوريين : نرفضه كعرب لان دور اسرائيل في افريقيا هو جزء من مخطط استعماري ضد الثورة العربية ، ونرفضه كمناضلين ثوريين لان دور اسرائيل في افريقيا جزء من الخطة الاستعمارية ضد الحركة التحررية العالمية)) .

وحدة المغرب العربي

((لقد بدأ شعار "وحدة المغرب العربي" يحتل مكانة بارزة في حياتنا ، وعلينا ألا نسمح لاحد باستغلاله ، وأن نستخلص التوعظة من أخطائنا السالفة بتعويد المناضلين على اعطاء كل شعار مضمونه الصحيح . وتلك وسيلة سوف نفرض بها على حلفاء الاستعمار الواعين وغير الواعين أن يكشفوا عن وجوههم الحقيقية ، أو أن يخضعوا لمنطق القوى الشعبية .

المغرب العربي كما نوء من به وكما نعمل له ، لا يمكن أن يكون الا منطلقا للتحرر العربي ولبناء المجتمع العربي المتحرر المزدهر ، على أسس من العدالة والتقدم تتنافى مع كل مخطط استعماري .

((٠٠٠)) اننا لا يمكن أن نتصور وحدة المغرب العربي الا كوحدة نابعة من نضال الجماهير الشعبية في هذه المنطقة من وطننا العربي الكبير . انها لا يمكن أن تكون مجرد اتفاقيات توقعها حكومات ذات أهداف وأسس متعارضة والتي لا تخدم الا المصالح الاجنبية المسيطرة في بعض أجزاء المغرب العربي . ان بناء الوحدة المتحررة يجب أن يبدأ من مختلف اجزائها تبعا لتحرر هذه الاجزاء من سيطرة الاستعمار والاقطاع وأن يصعد البناء عاليا ، من مشرق البلاد العربية ومغربها الى أن يلتقي في قمته العليا متناسقا مكتمل البنيان .

وأكبر ضمان لكي يكون البناء منسجما متينا هو في التنظيم الشعبي السياسي والنقابي والخاص بالشباب والنساء . هذا التنظيم يجب أن يعم الوطن العربي ويكون أداة لرفع مستوى الوعي فيه ولتجنيد الجماهير الشعبية من أجل التحرر أولا ثم البناء والنمو الاقتصادي والاجتماعي لفائدة الشعب)) .